الأخلاق عند الرواقية

المدرس الدكتور
سامي شهيد مشكور
جامعة الكوفة / كلية الآداب

الأخلاق عند الرواقية

المدرس الدكتور
سامي شهيد مشكور
جامعة الكوفة / كلية الآداب

المقدمة :

لقد أشبع مشاهير فلاسفة اليونان ولاسيما سقراط وأفلاطون وأرسطو بحثاً ودراسةً، أما بالنسبة للفلسفة الرواقية وخصوصاً المذهب الأخلاقي عندهم لم يجد حظه من الدراسة الكافية، لذا رغبت ان اكتب بحثاً في هذا الموضوع، لان الرواقية ليست مذهباً فلسفياً حسب وإنما هي كذلك أخلاق ودين وهي في صميمها فلسفة أخلاقية، وكان الرواقيون يؤمنون بسمو مكانة الفلسفة وجلال رسالتها ومقدرتها على ان تكون للناس هدى ورشاداً، وان تعريف الرواقية للفلسفة يدلنا على ان للأخلاق فيها المكان الأول فقد قالوا مثلاً، الفلسفة ممارسة الفضيلة، والفضيلة صناعة واحدة لا تتجزأ، وهي اشرف الصناعات منزلة، وهي تلائم طبيعة البشر خاصة، وقال سنيكا : ((الفلسفة منهج مستقيم في الحياة وعلم يعدنا لان نحيا على الفضيلة، وصناعة نسلك بها من السبل أقومها)).

والمذهب الرواقي لم يكن ثمرة لذهن فيلسوف واحد، بل هو ضرب من العمل الجماعي اشترك فيه كثيرون، وقد جرى تمييز ثلاث حقب في تاريخ المدرسة الرواقية، الرواقية القديمة التي اقتصر نشاطها على أثينا، ومن فلاسفتها ((زينون))[١]، كلينانتس [٢]، وكريزبوس [٣]. والرواقية الوسطى، ومن إعلام هذه الحقبة، فنايطوس [٤]، وبانتيتيوس [٥]، ويوزيدونيوس[٦]، والرواقية الحديثة في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وهذه الرواقية رومانية، أهملت المنطق

والطبيعيات واهتمت بالأخلاق وأقطاب هذه الرواقية هم ((سنيكا))[٧٠] ابكتاتوس [٨٠] ومرقص أوريليوس[٩٠]. وقد تناولنا في بحثنا هذا الرواقية القديمة والرواقية الحديثة أو الرومانية ولذا جاء البحث مقسماً إلى مدخل إلى الفلسفة الرواقية، ثم بعد ذلك نظرية المعرفة والمنطق عندهم حيث ركزوا في المعرفة على الجانب الحسي، فهم لا يسلمون بمعرفة المعاني معرفة مباشرة حدسية، بل كل معنى عندهم فأصله في التصور الحسي، ومهمة هذه النظرية هي ان تجعل اليقين والعلم يدخلان عالم الحس بعد ان استبعدهما أفلاطون.

أما بخصوص المنطق فالرواقيون حولوا المنطق كله جدلاً، ويرون انه لا يمكن الاستغناء عن الجدل وهو في ذاته فضيلة، كما تناولنا في هذا البحث الطبيعة عندهم، وقد كانت فكرة الرواقيين في بحث الطبيعة من خلال ماديتهم، وكل نظرياتهم في الطبيعيات انما يقصد بها ان تكون أساسا أو وسيلة إلى قواعد في الأخلاقيات، وهم بذلك اختلفوا عن أفلاطون وأرسطو الذين لم يقولا في نظرتهم الأخلاقية بشيء من المادية بل اضطرتهما نظرتهم الأخلاقية إلى الارتفاع عن العالم المحسوس والقول بعالم غير محسوس يمكن ان تتحقق فيه السعادة، أما بالنسبة لمبحث الأخلاق عندهم فيقوم على مبدأ لديهم يقول ((عش على وفاق الطبيعة)) فالناس مطالبون من ناحية بان يتشبهوا بالطبيعة بمعناها الواسع بمعنى ان يتصرفوا بمقتضى قوانين الوجود، ثم هم من ناحية أخرى مطالبون بان يخضعوا سلوكهم للطبيعة بمعناها الضيق وهو العقل، وكلا الأمرين واحد في نظر الرواقيين والطبيعة تسير على أساس ضرورة مطلقة فلا مجال إذن للتحدث عن الحرية بمعنى الخروج على ما تقتضيه الطبيعة، فالحكمة الدالة على الخير تدل الإنسان على ان خيره وسعادته يكمنان في تطابق إرادته الشخصية مع الإرادة الكلية للطبيعة، أما بالنسبة للأخلاق عند الرواقية الرومانية نرى ان النزعة السائدة في فلسفة الرومان هي نزعة أخلاقية ويتجلى ذلك في مؤلفات الرواقيين في ذلك العصر، إذ نراها لا تذكر عن المنطق والطبيعيات إلا النزر اليسير ولم تقتصر فلسفة الرواق في روما على اتخاذ مذهب الأخلاق الرواقية القديمة

بل أدخلت عليه طرائق جديدة لمعالجة أمراض النفوس، ونظرت نظرة واقعية في مختلف مراتب الكمال والسبل إلى بلوغها وكانت متجهة إلى الناحية العملية أكثر من الناحية النظرية، وكان الروماني ينظر إلى الفيلسوف بوصفه قائداً للضمير وموجهاً له فلم يكن غريباً ان تأخذ هذا الطابع العملي

مدخل إلى الفلسفة الرواقية :

الرواقية معاصرة للابيقورية ومعارضة لها، وضع أصولها زينون (٣٣٦-٢٦٤)، وكملها تابعان من بعده هما افلاينتوس (٣٢١-٢٣٢) وافريسيبوس (٢٨٢-٢٠٩)) والرواقية لها أتباع يونانيون وآخرون، رومانيون ولهذا انقسمت إلى دورين كبيرين، دور الرواقية اليونانية، ودور الرواقية الرومانية التي يمثلها شخصيات رومانية ثلاث هي ايكتاتوس ثم سينكا، ثم ماركس أورليوس.

وان الرواقية يمتاز مذهبها بثلاث مسائل رئيسة، الأولى ان الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة العملية، والثانية ان الفلسفة العملية هي التي تقوم على العمل المطابق للعقل، والثالثة ان العمل المطابق للعقل هو الذي يجرى بمقتضى قوانين الطبيعة [1]، فيظهر من هذه الخصائص الرئيسة ان الغاية من الفلسفة ان تكون فلسفة عملية، وذلك ان الرواقيين ينظرون إلى الفلسفة على انها أخلاق، وان الأخلاق أو الفلسفة بالمعنى العام هي ان يفعل الإنسان وفقاً لقوانين العقل، وفي سيره بمقتضى العقل انما يسير بمقتضى قوانين الطبيعة، والغاية التي تسعى إليها كل فلسفة في نظرهم هي ان تضع قوانين للسلوك الإنساني الخير.

جاءت الفلسفة الرواقية مناقضة لفلسفة سقراط (٤٧٠-٤٠٠)ق.م. وأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧) ق.م. وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢) ق.م. فقد أقام هؤلاء فلسفتهم على أساس البحث النظري قبل كل شيء، أما الرواقيون فلم يهتموا بالآراء النظرية ولم يعيروها من عنايتهم إلاّ بمقدار ما تكون سبيلاً إلى الجانب العملي من الحياة. بني الرواقيون نظريتهم حول المعرفة من نظرتهم المادية إلى المعرفة ومفادها ان كل معرفة

لا يمكن ان تكون إلاّ حسية أو راجعة في أصلها إلى الحس، وقالوا بان المعرفة تنطبع في الذهن بشكل مباشر من دون أي وساطة خارج نطاق الحواس.

جعل الرواقيون من نظرتهم إلى أقسام الفلسفة الثلاثة، المنطق الطبيعة، الأخلاق، وحدة متضامنة، فهم لا يمنحون أي قسم من هذه الأقسام استقلالاً ذاتياً بالرغم من الاختلاف الظاهر في ما بينها، وتقوم فكرتهم هذه على أساس ان العقل واحد متماثل وهو يربط بين هذه الأقسام جميعها لانه يتحكم في كل قسم منها، ولذلك كان هناك عند الرواقية نوع من التداخل أو الاختلاط ما بين المنطق والطبيعة والأخلاق [٢] وإذا كانت الفلسفة تعني ((محبة الحكمة ومزاولتها، وكانت الحكمة علم الأشياء الإلهية والإنسانية، فان الرواقية وجدت في الطبيعة وحدة الوجود، لان العقل الذي يربط المعلول بالعلل هو الذي يربط بواسطة الجدل، النتائج بالمقدمات وهو أيضاً الذي يقيم في السلوك أكمل التوافق بين الأفعال وقوانين الوجود في الأخلاق، أي ان المنطق هو صورة الطبيعة في العقل والأخلاق هي خضوع العقل للطبيعة، بحيث ان الرجل الفاضل طبيعي وجدلي، وان الطبيعي جدلي وفاضل بالضرورة بحيث ان الحكمة تشبه حقلاً أرضه الخصبة العلم الطبيعي، وسياجه الجدل وثماره الأخلاق[٣].

اذن رأت الرواقية ان الحقيقة تقوم على الفلسفة وهي تكمن في دراسة الناحية العملية التي هي تطابق العقل مع قوانين الطبيعة، وهكذا فان المنطق عند الرواقيين كان منطقاً استقرائيا ينطلق من الواقع العملي الخاضع لحكم العقل، ولهذا خصت الرواقية على مبدأ مفاده ((عش على وفاق الطبيعة)) أي ان على الإنسان ان يعيش على وفق القوانين الطبيعية التي تتحكم في كل الوجود، وعلى وفق ما يقوله العقل باعتباره أهم شيء في الإنسانية، لان الإنسان بطبيعته عاقل[٤].

نظرية المعرفة والمنطق عند الرواقية

تبدو نظرية الرواقيين في المعرفة مصيوغة بصيغة حسية، والمعروف ان أهل

الرواق حسيون، صرحوا بالمبدأ الحسي المشهور القائل بان ((لا شيء في الذهن مالم يكن قبل في الحس)) فهم لا يسلمون بمعرفة المعاني معرفة مباشرة حدسية، بل كل معنى عندهم أصلُهُ في التصور الحسي، ويشبهون الذهن قبل ورود الإحساسات عليه بالصحائف البيضاء لم ينفش عليه شيء، فالإحساس إذن عند الرواقية هو أول مراتب المعرفة وعمادها، وإذا كان فكر الإنسان قادراً على التجريد والإضافة والتأليف والنقل فهو لا يستطيع الخروج عن مقدمات الإحساس، وتصور ((زينون)) ان هذه المعرفة التي تحدث عنها تعطي فكرة حقيقية يقينية عن الشيء المحسوس وتمتاز دائماً بالدقة والوضوح، ويشبه ((زينون)) الأفكار الحقيقية التي هي أولى درجات المعرفة بحالة اليد المبسوطة الممدودة الأصابع، أي التصور ثم ثنى أصابعه قليلاً وقال هذا هو ((التصديق)) ثم أطبق كفه وقال هذا هو الإدراك، وأخيراً قبض بيده اليسرى على جميع كفه اليمنى وقال هذا هو العلم الذي أختص به الحكيم(٥).

ومهمة هذه النظرية الرواقية هي ان تجعل اليقين والعلم يدخلان عالم الحس بعد ان استبعدهما أفلاطون، الحقيقة واليقين في نظر الرواقيين أمران موجودان في المدركات التي يشترك الناس فيها يستوي في ذلك العالم والجاهل، إذن العلم لا يخرج عن ميدان المحسوس ويظل وثيق الصلة بالمدركات التي يشترك الناس فيها كافة.

فالعلم قائم على المحسوسات من خلال المعاني الكلية لأثار الإحساسات المختلفة والتي تؤثر في الإنسان بشكل فطري دون تفكير منه، ولذلك يمكن القول ان الرواقيين أكدوا على ان النشاط العقلي لا يقوم إلاّ من خلال إدراك المواضيع الحسية التي تنقلها حواس الإنسان إلى العقل، وباستطاعة الإنسان ان يجرد أو يضيف أو يركب أو يعدل أو يغير في كل شيء مدرك ولكنه دائماً مقيد بالمعطيات الحسية، وعندهم ان الأفكار الشائعة أو الفطرية، مثل فكرة الخير أو العدل أو فكرة الآلهة، لا تأتي من مصدر يختلف عن الحواس، انما هي استدلالات قائمة على الإدراك الحسي المباشر من خلال مقارنة الأشياء فيما بينها مفكرة الخير مثلاً تأتي من مقارنة يجريها العقل بين الأشياء يتم إدراكها مباشرة بصفتها خيره، وفكرة الله تأتي استنتاجاً من

مشهد جمال الأشياء في الوجود ونظام العالم[٦].

إذن عد الرواقيون على غير ما قاله أفلاطون حول المعرفة الفطرية، ان أصل المعرفة تأتي من الحواس التي تبدأ من الانطباع والتأثير في الإنسان منذ ولادته حيث يكون الذهن عند الولادة خالياً من أي إدراك كان لكن مع مرور الزمن يأخذ الذهن في الطبع اللامتناهي للآثار الخارجية التي تنطبع في الذهن من خلال الذاكرة, وكل ما تطبعه هذه الآثار الخارجية ليس سوى الأفكار التي يكونها العقل عبر ما يصل إليه عن طريق الحواس، ويتوصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة من خلال تطابق الشيء الموجود مادياً في الخارج الواقعي مع الصورة المدركة للذهن. فالشيء الحقيقي انما يفرض نفسه على نفوسنا فرضاً وليس لأفكاره من سبيل، اذ يقوم في النفس اعتقاد جازم بان هذا الشيء موجود فعلاً في الخارج، فهو حقيقة مؤكدة، وهذا الاعتقاد وحده مقياس الحقيقة[٧].

أما بخصوص المنطق فالرواقيون حولوا المنطق كله جدلاً ، وجعلوا فن الجدل الذي لم يكن له إلاّ قيمة عملية، علماً نظرياً، وأردوا ان يكون الجدل لا كما صوره أرسطو علم الشبيه بالحق بل ان يكون هو المنطق نفسه، علم الحق والباطل[٨].

ويرى الرواقيون انه لا يمكن الاستغناء عن علم الجدل، وهو في ذاته فضيلة عامة تنطوي على فضائل أخرى خاصة، ومن فضائله التحرر من العجلة، وهو ان يعرف الجدلي متى يعطي تصديق الذهن للآثار الخارجية ومتى يمسكه، ثم الحيطة، ثم الرصانة، ثم الجد، وهي إرجاع التصورات إلى العقل الصريح.

أراد الرواقيون أولاً ان يخلصوا علم المنطق من التعقيد الذي ناله على أيدي أرسطو وإتباعه، وحاولوا ان يقيموا منطقاً جديداً لا تتعارض فيه المعرفة الحسية مع المعرفة العقلية، ولذلك مضى ((زينون)) وانصاره من بعده فبحثوا عن الحقيقة في الأمور الوجودية الواقعية التي يشهدها الناس في تجارب حياتهم، وأول هذه الأمور وابسطها هو ان لا يوجد خارج الذهن إلاّ أفراد معينة مشخصة، أي أشياء مشهودة محسوسة، أما الأجناس والانواع، والصور، والمثل، وغير ذلك من المعاني العامة فهي

في الواقع أسماء ليس لها وجود خارج الذهن، انما الموجود في الخارج فهي في الواقع أسماء ليس لها وجود خارج الذهن، انما الموجود في الخارج فهي جزئيات شخصية وهي محسوسة غير معقولة، وكل ما هنالك ان العقل ينتزع منها قضية عقلية مجردة عن المادة[٩].

وان نمط القضايا التي يستخدمها الرواقيون لا يمت بصلة إلى نمط المنطق الأفلاطوني - الأرسطي، فالقضايا لا تعبر إطلاقا عن علاقة بين معاني أو تصورات فموضوعها على الدوام جزئي سواء كان محدداً كقولنا ((هذا)) أم غير محدد كقولنا ((احدهم)) أو شبه معين مثل قولنا ((سقراط)) فالرواقيون يغفلون التمييز بين القضايا الكلية والجزئية، ولا يقبلون غير القضايا الشخصية التي يكون موضوعها دائماً شخصياً يختلف حظه من التعين قوة وضعفاً [١٠]. وبهذه النظرية يظن الرواقيون انهم يتفادون الصعوبة التي كان قد أثارها السفسطائيون والسقراطيون بصدد امكانية قول على شيء أخر لان مادة المنطق عندهم هي واقع أو إحداث تقع لموضوعات جزئية.

الطبيعة عند الرواقية

كانت فكرة الرواقيين في بحث الطبيعة من خلال ماديتهم، وقد كانت نظرتهم إلى الوجود تتركز على الناحية الغائية القائلة بالنتيجة الموصلة إلى خدمة الناحية الأخلاقية عند الإنسان، فكل شيء موجه نحو العمل، وكل نظرياتهم في الطبيعيات انما يقصد بها ان تكون أساساً أو وسيلة إلى قواعد في الأخلاقيات، وذلك لانهم يبحثون عن العمل وتحقيق الفعل من حيث انه مؤدٍ إلى السعادة، وتحقيق الفعل يتم بالنسبة إلى أشياء مادية موجودة في الواقع، أي ان كل فعل يستلزم شيئاً مادياً جسمانياً محسوساً لكي يتم، فلابد من إرجاع كل شيء وكل وجود حقيقي إلى ما هو مادي [١١].

لكن نلاحظ ان أفلاطون وأرسطو قد اتجها نحو الأخلاق ومع ذلك لم يقولا

بشيء من المادية بل اضطرتهما نظرتهما الأخلاقية إلى الارتفاع عن العالم المحسوس والقول بعالم غير محسوس يمكن ان تتحقق فيه وحدة السعادة. فقد فرقت فلسفة أفلاطون بين عالم الغيب وعالم الشهادة وجعلت العالم العقلي هو العالم الأصيل عالم الحقائق الخالدة، وما عالم الحس بالنسبة إليه إلاّ صورة شاحبة ممسوخة، وواجب على الإنسان إذا أراد السعادة ان يعمل على الخلاص من ذلك العالم الدنيوي الحافل بالبؤس والآلام، وان يجاهد ليسمو بنفسه إلى العالم العقلي لمشاهدة الحقائق الباهرة والخير الكامل. أما أرسطو فيقول ما دمنا نحن موجودات مفكرة، وما دام الفكر أحسن ما فينا فبمقدورنا وواجب علينا ان نسعى لكي نذوق تلك السعادة [١٢]، أما الرواقيون فقد أرادوا بعكس ذلك ان تكون الفضيلة والسعادة في متناول الناس أجمعين وان تكونا ميسورتين في هذه الدنيا. ورأى الرواقيون ان الإنسان وكل الوجود بما فيه الإلهة والنفس الإنسانية كلهم مكونون من مادة حتى لو كانت ذات صفات غير حسية، ولا بد للمادة هذه من ان تكون متكونة من جسيمات وتيارات هوائية تنفذ من خلال هذه الجسيمات وتمنحها التوتر والتماسك، مثال ذلك النفوس والفضائل والانفعالات والحكمة والحركة، هي جميعها صور مادية أو عمليات تختلف في درجة دقتها ولكنها واحدة في جوهرها وناشئة من مبدأ واحد والدليل على ذلك هو التأثير المتبادل بين الجسم والنفس اللذين يتفاعلان مع بعضهما على الدوام، فالجسم يؤثر ويفعل في النفس بما يوحي إليها من أفكار وانفعالات، في حين ان النفس تؤثر وتفعل في الجسم بما توحي إليه بالحركات، ولو لم يكن الجسم والنفس من عنصر واحد لما كان هناك من علاقات وتأثير متبادل فيما بينهما [١٣].

ثم بحثوا في أساس المادة التي نشأ عنها هذا العالم والذي هو أصل كل التغيرات فقالوا بان النار أساس كل شيء، وان كل شيء مركب من النار، وقالوا ان الله هو النار الأولى، ونسبة الله إلى العالم كنسبة روحنا ألينا، ونفس الإنسان نار جاءت من النار الإلهية وانبثت في الحسم كله، وكذلك الله منبث في العالم كله لانه

نفس العالم والعالم جسمه.

والرواقيون يرون ان الوجود يتجدد دائماً بحيث يبدأ ثم ينتهي على وفق قانون ثابت واحد لا يتغير، ففي كل مرة يتكرر ما حصل في السابق نفسه، وذلك نتيجة الترابط الضروري القائم ما بين العلل والمعلولات، فكل ما في الوجود ومنه الإنسان يسير على وفق قانون ثابت وغاية لا تتغير، إذ ان الإرادة الإنسانية لا تخرج عن هذا المسار الثابت للحتمية المطلقة، فالإنسان حر في أفعاله، ولكن حريته هذه تتوقف عند حدود مارسمه القدر له [١٤].

وهذا ((القضاء)) عند الرواقيين عبارة عن تسلسل العلل والأسباب تسلسلاً يستلزم ان يكون كل حادث نتيجة لعلة، وكل علة مرتبطة بعلة أخرى وهكذا إلى غير نهاية، فهذا التسلسل يحكم الأشياء المستقبلة كما يحكم الأشياء الحاضرة والماضية.

الكون كل واحد وهو كائن حي، العالم المادي جسده، والإله روحه وإذا كان الإله هو الكون، والكون هو الإله، فهذا معناه ان القدر لا يعدو ان يكون في نهاية الأمر إلاّ العناية، أي ان القدر المحتوم اسم أخر للعناية الإلهية فهما شيئا واحد لا غير، نسميه قدراً بالنظر إلى التسلسل والترابط الضروري للأحداث الطبيعية ونسميه عناية بالنظر إلى الكائن الإلهي المدبر لهذه الأحداث الطبيعية.

وان معنى حدوث الأشياء بالقضاء والقدر ان الإنسان مجبر غير مختار في أفعاله فإذا كانت الأشياء كلها تحدث على وفق قدرٍ مرسوم، فالأشياء التي قدر ان تقع لنا ستقع سواء فعلنا أم لن تفعل، لكن ((كروسبوس)) يقول إذا كانت الأشياء خاضعة للقضاء والقدر، فليس ذلك القضاء بملزم للفعل ولا بمانع له، وأفعال الإنسان. وان تكن واقعة تحت حكم القدر، إلاّ انها حاصلة عن الكسب والاختيار، والإنسان على كل حال قادر على ترك الفعل قبل وقوعه[١٥].

الأخلاق عند الرواقية اليونانية:

تقوم فلسفة الرواق الأخلاقية على مبدأين يقرر أولهما ان العالم يخضع

لقانون مطلق لا يبيح استثناء، ويرى ثانيها ان طبيعة الإنسان التي تميزه من سائر الكائنات تتمثل في جانبه العاقل، وقد لخص هذين المبدأين شعارهم الذي يقول ((عش على وفاق الطبيعة)) لان هذا الشعار ذو وجهين، فالناس مطالبون من ناحية بان يتشبهوا بالطبيعة بمعناها الواسع بمعنى ان يتصرفوا بمقتضى قوانين الوجود، ثم هم من ناحية أخرى مطالبون بان يخضعوا سلوكهم للطبيعة بمعناها الضيق وهو العقل، وكلا الأمرين واحد في نظر الرواقية، لان العالم يسير وفقاً لقانون العقل، والإنسان الذي يتبع طبيعة العاقلة يتشبه بالعالم الأكبر، والإنسان لا يملك عصيان قوانين الوجود ولكنه بسببٍ من كونه كائناً عاقلاً هو الوحيد الذي يطيع هذه القوانين عن وعي وتعمد وإدراك، ابتغاء تحقيق سعادته [١٦].

وإذا نظرنا إلى طبيعة الحياة الإنسانية، لوجدنا ان المبدأ الأول الذي تقوم عليه الحياة هو المحافظة والإبقاء عليها، ثم العمل على ما تقتضيه طبيعتها فطبيعة الحياة الخارجية وطبيعة الحياة الإنسانية سواء بسواء هي العقل ولهذا فان السلوك يجب ان يكون السير بمقتضى العقل وبمعنى آخر السير بمقتضى الطبيعة، لان العقل والطبيعة شيء واحد، فنرى ((زينون)) يقول عن الطبيعة انها العقل.

والطبيعة تسير على أساس ضرورة مطلقة فلا مجال إذن للتحدث عن الحرية بمعنى الخروج على ما تقتضيه الطبيعة، فسواء رضي الإنسان أم لم يرضَ فهو لابد سائر بحسب ما تقتضيه الطبيعة، والأحمق والحكيم كلاهما يسير إلى نتيجة واحدة، أما الفارق بين الأحمق أو الجاهل وبين الحكيم هو في موقف الحكيم بالنسبة إلى الأشياء الطبيعية وإحداث الكون وموقف الجاهل من هذه الأشياء، أما الحكيم فيعلم طبيعة الأشياء وتبعاً لهذه الطبيعة يسلك بان يوفق بين حساسيته ونيته وحالته الباطنة وبين ما تقتضيه طبائع الأشياء، بينما الجاهل يكون ذا حال باطنه [١٧] مختلفة عما تقتضيه طبائع الأشياء فيحدث نزاع بين حساسيته وبين عقله فالقوة العاقلة عند الإنسان تبين له انه جزء من الطبيعة الكلية التي تقول له بضرورة بقائه في الوجود وفي الخضوع لقوانينها، فالحكمة الدالة على الخير تدل الإنسان على ان خيره وسعادته

يكمنان في تطابق إرادته الشخصية مع الإرادة الكلية للطبيعة، أما المنافع والأضرار الخارجة وهي الأشياء الجزئية المتعلقة بالطبائع الجزئية، فهي تختلف عن معنى الخير المتعلق بالإرادة الصالحة المطلقة المدركة بالعقل كالإرادة الكلية للطبيعة، فالحياة والشرف والغنى ليست خيرة في ذاتها ولا الموت والاهانة والفقر شروراً في ذاتها، وحتى ان اللذة ليست خيرة في ذاتها، وإنما هي نتاج أفعال الإنسان حيثما تكون هذه الأفعال خاضعة ومتوافقة مع قوانين الطبيعة [١٨].

الخير عند الرواقية:

الابيقورية ذهبت إلى ان ((الخير)) هو ما يشيع رغباتنا البشرية وفي مقدمتها جميعاً الرغبة في اللذة إما الرواقية فهم على العكس من ذلك قد ذهبوا إلى ان العقل الخير هو ذلك وفقاً لمبدأ من المبادئ العقلية، وإذا كان الرواقيون قد اعتبروا ((الخيرية)) ظاهرة طبيعية، فذلك لانهم قد افترضوا منذ البداية ان قوانين الأخلاق هي قوانين الطبيعة، وان الرواقيين يقررون ان القانون الأخلاقي هو قانون الوجود، وان الوجود هو الحياة، فليست السعادة سوى شعورنا باننا نمارس وظائفنا بانسجام تام واننا نتمتع بأقصى ما تيسره لنا طبيعتنا من حياة خصبة فائضة مليئة، وما دام الأمر كذلك، فان الإنسان حين يريد حياته انما يريد سعادته وهو حين يريد سعادته، فهو انما يريد ان يأتي كل شيء مطابقاً لقانون الطبيعة. فان الخير في نظرهم هو مطابقة النظام الكوني، بينما الشر هو التمرد على قانون الأشياء [١٩].

وان عدم فهم الطبيعة وعدم إدراك قوانينها يؤديان إلى اضطراب الإنسان بحيث يجد نفسه مسيّراً بشكل متناقض لإرادته الشخصية وبعيداً عن تحقيق إرادته وخيره، ويغدو مِن ثَمَّ خاضعاً لنزواته المتعارضة مع الطبيعة، فحكم العقل عند الإنسان وسيطرته على شهواته كل ذلك يمثل قمة توافق الإنسان مع الطبيعة لكن بالرغم من ذلك فقد قالت الرواقية بان القوانين الطبيعية الإنسانية تضم أيضاً نزوات غير متطابقة مع العقل، ولذلك فان طبيعة الإنسان العاقلة تدخله في صراع دائم مع

هـذه النـزوات الـتي تتنـاقض في جزئياتهـا مـع الإرادة الصـالحة الكليـة المتوافقـة مـع الطبيعة المنتجة للفضيلة، ولهذا فان الإنسان الفاضل الحكيم هو من يعمل على نزع هذه النزوات المتعارضة تمام التعارض مع القوانين الطبيعية [٢٠].

وكانت إقامة الأخلاقية على العقل وليس على وجدانات الذات وحدوثها قوام جميع المذاهب الأخلاقية الأصيلة، لكن الذي يميز المذهب الرواقي على سابقيه يقوم في التفسير الجانبي الضيق لهذا المبدأ، فأرسطو كان يرى ان طبيعة الإنسان الجوهرية تتمثل في عقله، ولهذا أوجب على الإنسان ان يخضع سلوكه لحكم العقل الذي يميز الإنسان من سائر الكائنات، لكن أرسطو قال ان الأهواء والشهوات لها مكانها في طبيعة الإنسان، ومن اجل هذا لم يطالب بالعمل على استئصالها وقمع ندائها، بل قال بإخضاعها لحكم العقل[٢١]، بينما نرى ان الرواقية فقد احتقروا هذه الأهواء واعتبروها مخالفة في جوهرها لمنطق العقل، ومن ثم طالبوا باستئصالها وإبادتها.

لذلك انتهت الأخلاق الرواقية بمذهب في الزهد [٢٢] الذي ينقصه التوازن تحقيقاً لنوع من السعادة السلبية اعتبروه غاية الحياة القصوى.

وكان لدى رجل الأخلاق عند الرواقيين ان يتحرر تماماً من كل مشاركة في قيم الحياة وان يغلق عينيه عن كل ما قد يولد لديه رغبات أو انفعالات أو أهواء، وفات الرواقيين ان الإنسان ليس عقلاً صرفاً لا يخضع لأي عاطفة أو وجدان بل هو كائن مشخص له أفكاره وعواطفه ورغباته ونوازعه وميوله واتجاهاته الوجدانية، وان الحياة الخلقية للموجود البشري لا يمكن ان تظل مجرد حياة عقلية لا يحكمها سوى طاعة القانون الطبيعي الكلي.

فالقوة العاقلة عند الإنسان تبين له انه جزء من الطبيعة الكلية التي تقول له بضرورة بقائه في الوجود وفي الخضوع لقوانينها، وان سعادة الإنسان الفاضل المتوافقة إرادته مع إرادة الطبيعة هي في الأخذ بما تقوله الطبيعة، مما يعني فهمه لها، وتكون سعادته بالتالي في وصوله إلى تحقيق الهدوء والاستقرار النفسي المؤدي إلى

استقرار الإنسان الكامل [٢٣].

وإذن فأحكام القيم التي نطلقها على ماله مساس بحياتنا هي التي تكيف ظروفنا الاجتماعية، فتجعلنا نشعر فيها بالسعادة أو بالشقاء، بالراحة أو التعب فإذا كان للإرادة سلطان على أحكامنا، وكانت السعادة منوطة بهذه الأحكام، فالسعادة هي إذن شيء باستطاعة كل فرد منا إذا أمكنه ان يحرر نفسه من أوهام الأحكام، وفي ذلك يقول ((ابكتيتوس)) ((ان الذي يصيب الناس ويؤثر في حياتهم ليس هو الأشياء نفسها بل هي آراؤهم عن الأشياء، فلو كان سقراط يرى الموت شراً لوقع الرعب منه في قلبه، لكن سقراط لم يكن يرى الموت شراً، فأقدم عليه غير مبال [٢٤] فقد ظهر اذن ان الموت مثلاً ليس برديء في نفسه كما يتوهم جمهور الناس وانما الرديء هو الخوف منه [٢٥].

الفضيلة عند الرواقية:

قال الرواقيون في نظريتهم للأخلاق ان من الحماقة ان ينشد الإنسان لذته، فيلتمس سعادته التي لا تتحقق إلاّ بمزاولة الفضيلة، والإنسان لا يتوخى ان يكون فاضلاً ابتغاء اللذة، بل انه يتمسك بالفضيلة من اجل الواجب، والفضيلة تقوم في الإرادة التي تنصاح لحكم العقل فكل خير أو شر في حياة الإنسان مرهون بإرادته، قد ينزل به الفقر فلا يمنعه هذا من ان يظل برغمه فاضلاً وقد يعاقب بالإعدام ولكنه يستطيع مع هذا ان يموت شريفاً، إذ لا سلطان لأحد على الإنسان إلاّ في الأمور الظاهرية، أما التزام الفضيلة أو العدول عنها فمرجعه إلى إرادة الإنسان ان الفضيلة تقوم على العقل، ومن ثم استندت إلى المعرفة، فأرتد الرواقية بهذا إلى رأي سقراط في التوحيد بين الفضيلة والمعرفة والاستخفاف بالنظر العقلي الخالص وربط التفكير بالعمل[٢٦].

والإنسان بحاجة قبل كل شيء إلى ان يعرف كيف يحيا حياة فاضلة، وإنما الحكمة هي التي تكفل تلك المعرفة، والحكمة لا تخالف الطبيعة، من اجل ذلك عرف

الرواقيون الفضيلة بانها ((العقل الصريح)) [٢٧] اعني العقل الشامل السليم الذي يظل دائماً متسقاً مع نفسه، أي ان يتصرف في الأشياء وفقاً لحكم العقل، وان العقل يطابق الطبيعة، وإذا كان العقل ثابتاً فهو كفيل بثبات السلوك الإنساني.

كذلك لا يمكن ان يقال ان انساناً له من الفضيلة ثلثها أو نصفها، بل الرجل أما ان يكون حكيماً فاضلاً أو سفيهاً ناقصاً، ولا يعد فاضلاً من لم يبلغ الفضيلة بكمالها وتمامها، ولا توسط بين الفضيلة والرذيلة، لان العقل الصريح هو العقل الكامل، فهو أما ان يكون موجوداً بأكمله أو غير موجود بتاتاً قال ((كليناتس)) ((الناس جميعاً ميالون بفطرتهم إلى الفضيلة ولكن الذي لا ينمون في انفسهم هذه الميول هم أشرار أراذل والذين ينمونها ويزكونها هم أخيار أفاضل)) [٢٨].

يبدو إذن ان الرواقيون ينظرون إلى الفضيلة تارة بوصفها مبدأ وأصلاً للخير، وطوراً على انها غاية الكمال ومنتهاه، فمن حيث انها مبدأ واصل تكون الفضيلة قابلة للنمو والازدياد، ومن حيث انها تعبر عن منتهى الكمال فهي تكون تامة كاملة، في جميع الحالات تبقى الفضيلة واحدة لا تتجزأ رغم تعدد مجالات ممارستها وتبرز وحدتها في القول المأثور بين الرواقيين ((من حاز فضيلة واحدة حاز الفضائل كلها)) ولقد شبه الرواق وحدة الفضيلة بوحدة النفس، فكلما ان النفس تظل واحدة رغم تنوع وظائفها فان غاية الفضيلة تبقى واحدة أيضاً وقصدها يظل ثابتاً لا يتغير رغم تغير مجالات ممارستها.

وهكذا نجد ان الفضيلة عند الرواقية قد انتهت إلى ان تكون علماً فقط بما تقتضيه الطبيعة وتكييفاً للنفس لكي تتجه نفسياً في الاتجاه الذي تسير فيه قوانين الطبيعة، فكان المسألة تنحصر في الواقع في علم الإنسان بالأشياء الخارجية من ناحية ثم في الصورة التي يتقبل عليها المرء هذا العلم، ولهذا فان المهم دائماً في الفضيلة عندهم صورتها فحسب لا مضمونها، لان المضمون واحد باستمرار، من حيث ان ما تقتضيه الطبيعة هو الذي سيحدث، ولا مجال للاختيار والحرية [٢٩]. لان الفضيلة معرفة وارداة، وحين يعرفها الفاضل، يعرفها بمجموعها، وحين يقرر بإرادته

الخضوع لها، فانه يخضع لها جميعاً، فالغاية الأساسية عند الإنسان الفاضل هو ان يحيى ويختار ما يشاء وفق ما يقرره العقل وما تقرره إرادته المتوافقة مع إرادة الطبيعة الكلية، وهذا التلازم بين الإرادتين عند الحكيم، هو الذي يولد القناعة بوجود القدر المحتوم، وبذلك تخضع الإرادة الخاصة لإرادة القدر، فتحصل النفس على الرضي والطمانينة، ان طمانينة النفس التي ينشدها الحكيم الرواقي لا تتيسر إلاّ مع قيام الضرورة التي تقتضيها العناية الإلهية، فإذا اعتقد الحكيم بهذه العناية والضرورة التي تقتضيها سلم بان الأحداث التي تقع لا مناص من وقوعها، ولا مهرب له من احتمال أثارها، فيزايله الخوف ويتحرر من ضغط الانفعالات وبهذا تتحقق طمانينة النفس، انه يرضى بالمحن التي تنزل عليه اعتقاداً منه بانها مقدرة عليه، فيتفادى القلق ويوفر لنفسه السعادة السلبية التي ينشدها [٣٠].

والفضيلة ليس لها موضوع خارجي تتوجه إليه، ولكنها تنتهي عند نفسها وتقوم في إرادة المطابقة مع الطبيعة، وليست تقاس قيمتها بغاية تحققها ولكنها هي الغاية تشتهي لذاتها، فهي كاملة منذ البداية تامة في جميع أجزائها وان تكن ثمة فضائل أخرى، فما هي إلاّ وجوه من الفضيلة الأساسية فالشجاعة هي الحكمة فيما يجب احتماله، والعفة هي الحكمة في اختيار الأشياء والعدالة هي الحكمة في توزيع الحقوق، فالحكيم أو الإنسان الكامل هو الذي يعلم ان كل شيء في الطبيعة انما يقع بالعقل الكلي أو بالإرادة الإلهية أو بالقدر [٣١] .

المجتمع عند الرواقية :

لقد تطورت فكرة القانون الطبيعي مع الرواقية حتى أصبحت تقول بالمساواة بين البشر وعدم التمييز بينهم أو بين المجتمعات البشرية المختلفة، وذلك بخلاف كل التقاليد الإغريقية التي كانت تميز بين اليونانيين والبرابرة وبين الأشراف والعامة وبين الأحرار والعبيد وبين الاغنياء والفقراء، ولعل التمييز الوحيد الذي ذكرته الرواقية بين البشر، كان ذلك القائم على أساس التفريق مابين الإنسان الفاضل والإنسان

الغبي أو الأحمق، فالناس جميعاً عند الرواقيين إخوة ينتمون في الأصل إلى ماهية واحدة هي التي تميزهم عن الحيوانات، فكل الناس يكونون جسماً واحداً ويخضعون لقانون طبيعي واحد يسيرهم جميعاً نحو قدر واحد، ومن ثم فان الناس باجمعهم متساوون لا تمييز بين فرد منهم لا في الجنس ولا في العنصر ولا في اللون [٣٢].

ونرى أصحاب الرواق مالوا إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة أعضاؤها أفراد البشر عامة أياً كانت نحلهم وألسنتهم وبلادهم، وبذلك اختلفوا عن أفلاطون وأرسطو الذين لم يعرفا من روابط الصداقة والعطف إلاّ ما يكون بين المواطنين من أهل المدينة الواحدة، ولم يعمما صفة الإنسانية تعميماً تتخطى به حدود المكان والزمان، حيث نرى أفلاطون يقول ((ننصح للمدن اليونانية ان تتعهد فيما بينها العلائق الودية بل ان تتحالف وتؤلف أسرة واحدة)) [٣٣] ثم يصرح بان اليونان لا يسترق بعضهم بعضاً وإنما يسترقون الأعاجم.

تلك هي الجامعة الإنسانية التي نادي بها أصحاب الرواق في العصر القديم، وتذهب تلك الوحدة العالمية إلى القول بوجود رابطة أخلاقية وثقي تربط بين الإلهة وبين بني الإنسان، ذلك ان أهل الرواق كانوا يعتقدون ان روح الإنسان لا تختلف في جوهرها عن ((عقل الكون)) وان الإلهة ليسوا في الحقيقة إلاّ أجزاء في هذا العقل الكوني، ولما كان الإنسان مخلوقاً أعدته الطبيعة للاجتماع والعمران فقد وجب على الناس ان يكونوا أخوانا، وان يؤلفوا فيما بينهم ما يسميه الرواقيون "مملكة العقل" وهي مملكة تشمل أفراد الإنسانية جميعاً باعتبار انهم أوتوا نصيباً واحداً من العقل وانهم مهيأؤون للفضيلة، وإذن فالدولة المثالية عند الرواقيين لا تعرف حدوداً ولا فروقاً بل هي مجتمع عقلي يضم البشر أجمعين [٣٤].

أكدت الفلسفة الرواقية انطلاقا من مفهومها حول الطبيعة والإنسان، ان الحكيم الفاضل وهو العارف والمتمتع بالإرادة الحرة، يعرف ان العالم اجمع هو وطنه الأكبر إلى جانب وطنه الأصغر الذي يعيش فيه، ورأى الرواقيون ان هذا الحكيم يقوم بمحض إرادته بكل الواجبات التي تقرضها عليه هذه المواطنة.

ولن يعرف الحكيم لا أسفاً ولا حزناً ولا خوفاً ولا أي اضطراب من هذا القبيل، وسعادته كاملة، ووحدة دون سواه سيحوز الحرية، الغنى الحق، الملكية الحقة، الجمال الحق ووحدة سيعرف الإلهة وسيكون الكاهن الحقيقي، وبما انه نافع لنفسه وللغير فسيعرف وحده كيف يسوس بيتاً أو مدينة وكيف يكون له أصدقاء [٣٥].

وان المدن الإنسانية الواقعة تقتضي بين البشر فروقاً وضروباً من التفاضل وعدم المساواة، في حين ان المدينة الفاضلة أو المدينة الإلهية في نظر أصحاب الرواق، انما هي مجتمع تحل فيه الوحدة العقلية محل الوحدة السياسية وتقوم فيه المحبة بين الناس مقام القانون [٣٦].

كانت هذه النزعة الكونية التي ظهرت مع ((زينون)) من خلال واقع الدولة الملكية الواسعة الأرجاء، تطمع في إقامة مجتمع كبير متماسك قادر على ان يحل محل الدولة الصغيرة المتطاحنة فيما بينها، وتمنى ((زينون)) وآخرون من إتباعه، ان يقوم المجتمع الجديد على أساس المساواة بين الناس أجمعين، بحيث لا يكون داخله أغنياء أو فقراء أو سادة أحرار أو عبيد، كما تمنوا ان يكون هذا المجتمع متكوناً من الحكماء الفضلاء حيث يحكم فيه الفلاسفة بالعدل، ويكون الناس جميعاً أخوة في ظل ارادة الطبيعة التي يحكمها الإله الواحد[٣٧].

الأخلاق عند الرواقية الرومانية:

لم تقف الأخلاق عند الرومان عند علم الطبيعة إلاّ وقفات قصيرة موجهة أقصى عنايتها إلى مبادئ الأخلاق وتطبيقاتها، وعلى هذا النحو أصبحت النزعة السائدة في الفلسفة عند الرومان نزعة أخلاقية، يتجلى ذلك في مؤلفات الرواقيين في ذلك العصر، إذ نراها لا تذكر عن المنطق ولا عن الطبيعيات إلاّ النزر اليسير ولم تقتصر فلسفة الرواق في روما على اتخاذ مذهب الأخلاق القديم كما كان، بل أدخلت عليه فناً جديداً، وأدخلت طرائق جديدة لمعالجة أمراض النفوس، ونظرت نظرة واقعية في مختلف مراتب الكمال والسبل إلى بلوغها وكان الرواقي في اثينا معلماً

أو مدرساً، فأصبح في روما دليلاً ومرشداً، وهذا "سنكا" يأبى ان يعد نفسه من ((فلاسفة المنابر)) الذين يخطبون الجماهير بل هو لا يقبل من التلاميذ والمريدين إلاّ طائفة مختارة، يبوحون له بجميع شؤونهم وخلجات نفوسهم فيقدم النصيحة لهم ويسدي إليهم إرشاده [٣٨].

وان الرواقية التي قال بها كثير من الرومان أمثال "سنكا" (ومرقس أوريليوس)) كانت متجهة إلى الناحية العملية أي الحكمة العملية في الحياة وانصرفت نهائياً عن الأسس النظرية الأولى التي قامت عليها الأخلاق الرواقية، ولئن كان هؤلاء وأمثالهم من الرواقيين الرومان قد اخذوا بالأخلاق الرواقية فانهم لم يأخذوا إلاّ الناحية الشعبية، لانهم وجدوا فيها ما يلاءم مزاجهم وطبيعتهم الخاصة، وكان الروماني ينظر إلى الفيلسوف بوصفه قائداً للضمير وموجهاً له فلم يكن غريباً ان يأخذ هذا الطابع العملي الصرف [٣٩].

وسنوجز الكلام في الأخلاق عند كل واحد من أقطاب المدرسة الرومانية :

١. سنكا:

مثلت كتابات "سنكا" الفلسفة الرواقية المتأخرة، وكان رجلاً ثرياً وسياسياً لامعاً وقد لعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والسياسية، إلا انه كره الحياة العامة وفضل الانزواء بعيداً ليتأمل الحقائق الطبيعية والاجتماعية بعد ان هاله انحطاط الإنسان والحياة الاجتماعية، ويقول عن مجتمع زمانه ((محتشد من الوحوش الكاسرة، والفارق ان الوحوش هي فيما بينها وديعة فلا ينهش بعضها بعضاً، اما البشر فلا شان لهم غير ان يمزق احدهم الأخر))[٤٠].

وفي حديثه عن الله والنفس والروح والجسد الذي اعتبره محلاً لإله يسكن فيه كما يسكن الضيف عند مضيفه، أضاف "سنكا" بعداً جديداً للرواقية تجسد في الاعتقاد الديني العميق، فمع انهيار القيم الاخلاقية والدينية القديمة وانحطاط الحياة الاجتماعية المدنية، بدأت نزعات فكرية تتوجه نحو إيجاد أفكار وقناعات ينطلق من الايمان بقوة خالقه مدبرة عليا فوق الوجود المادي، وكانت هذه

الكتابات الدينية في حقيقتها ترسم الإرشاد الخلقي لذلك قال "سنكا" ((أتريد ان تكون عند الله محبوباً، كن صالحاً اذن وان اردت التعبد له فشابهه، فليست العبادة في تقديم الاضاحي، بل في الارادة الورعة المستقيمة)) (٤١).

ويقول سنكا ((ان بذل الجهد من شيم الكرام، يعني خاصتهم وصفوتهم، وان الشرف الصحيح الذي يناله الإنسان بنيل قلبه وعظمة نفسه، وقوله، انه ينبغي علينا ان نعد الكمال صراعاً مستمراً وان نخضع انفسنا لاختيار جواني دقيق فننظر كل مساء كيف انفقنا ساعات نهارنا، ويقول لا شيء من افعالنا بناج من رقابة الضمير الذي يقف لنا بالمرصاد ويحكم على ما نفعل وان الالهة شهود على افكارنا وخواطرنا، رقباء على كلامنا وافعالنا ثم هو ينصح بالاستعداد للحياة الباقية وذلك بان نضعها نصب أعيننا (٤٢).

ويرى ان الثروة محنة ينبغي على الإنسان ان يجتازها بكرامة، فإذا صح اننا ينبغي ان نعيش على وفاق مع الطبيعة، افلا يكون من مخالفة ارادتها ان نوقع بالبدن صنوف العذاب، نعم ان الفلسفة تحض الناس على ان يعيشوا عيشة الكفاف، لكن الكفاف لا يتنافى مع قليل من الرشاقة وجملة القول اننا ينبغي ان نقتني المال على شرط ان لا نتركه يستعبدنا واذا ضاع منا لم تذهب نفوسنا عليه حسرات (٤٣).

اما موقفه من الانتحار الذي لم يكن في نظر الرواقيين بالامر المستنكر فهو وان كان يقر هذا الموقف الرواقي بأزاء الانتحار إلاّ انه لا يجوز للمريض ان ينتحر تخفيفاً لالامه، مادام المرض لم ينل عقله ونفسه بسوء، كذلك يستنكره اذا صدر من أولئك الضعفاء ذوي المزاج الكئيب الحزين، ويستنكره اذا ساقته نزوة نفسية طارئة أو بدعة أدبية عابرة، لكن الانتحار عنده مباح بل مرغوب فيه اذا كان اخر معقل لحرية الفرد، فالتمس الرجل الحر منه جنة تقية رزايا الحياة وتنأى بكرامته عن ان يمسها عسف الطغاة المستبدين(٤٤).

٢. أبكتيتوس:

الفكرة التي تسود فلسفة ((ابكتيتوس)) هي فكرة الحرية التي اغفلتها الفلسفة القديمة، ويراها اجل الخيرات وأوفر النعم التي نصيبها في هذه الدنيا والحرية عنده هي ان يتصرف الإنسان في افكاره وارادته بحيث لا يمكن قهره، واذن فهي حرية النفس التي تعرف كيف تحكم نفسها، واذا اراد الإنسان ان يعرف تلك الحرية وجب عليه وفقاً للمبدأ السقراطي ان يعرف نفسه، عند ذاك يتبين انه مستبعد لاشياء كثيرة، فهو عبد لجسمه، عبد للمال، عبد للحياة والسلطان(٤٥).

كان ((ابكتيتوس)) عبداً رقيقاً، ولكن العبيد يتسأوون في المذهب الرواقي مع سائر الناس لانهم جميعاً ابناء الله، روي عنه انه كان يقول ((اذا قدر لي ان اموت لم اجد في الاقدام على الموت ما يدعو إلى التأوه والتألم واذا قدر لي ان ازج في السجن لم اذهب اليه باكياً منتحياً، واذا قدر لي ان اعاني مرارة النفي لم اذهب إلى منقاي مكتئباً متخاذلاً، واذا طلب اليّ طاغية ان افشي سراً وهددني بان يقيدني بالاصفاد قلت له انك تقيد ساقي ولا تملك ان تمس ارادتي بسوء، واذا ارسلتني إلى السجن امكنك ان تتحكم في جسدي دون ان تمتد قدرتك إلى نفسي(٤٦).

فالله الذي منحنا الحرية محال ان يسلبنا اياها، والمنحة الالهية لا تسترد كالمنح البشرية، واذن ففي الحرية يجد الإنسان مستندة الذي يطمئن اليه. واصح ما يستعمل الإنسان فيه حريته هو ان يستعمل تصوراته واراءه استعمالاً حسناً أي ان يتخذ في حياته احكاماً موافقة لطبيعة الاشياء ومن شان هذه الاحكام ان ترشد الإنسان إلى ان حصول الاشياء امر ضروري، وان تجعله يذعن لحدوثها ويقبلها كما هي، دون ان يطمع في تغييرها أو جعلها ملائمة لرغباته.

ويرى ان الاشياء الخارجية بذاتها متسأوية القيمة، اعني ليست خيراً ولا شراً انما الخير والشر في ارادتنا، فأرادتنا وحدها تستطيع بإقرارها أو رفضها ان تعطي

للاشياء قيمها، وان تجعل بعضها يستحق ان يفضل على غيره وبعضها يستحق ان يتجنب، فاللذة الحسية مثلاً اذا اخذتها على حده كانت شيئاً متسأوياً وكذلك الالم، لكني اذا استعملت اللذة استعمالاً ملائماً لحريتي وللعقل اصبحت اللذة خيراً، وكذلك اذا استعملت الالم استعمالاً حسناً اصبح الالم خيراً [٤٧].

وان قوة الشعور الديني عند ((ابكتيتوس)) قد تطغي احياناً على مذهب وحدة الوجود الذي عهدناه عند الرواقيين الاقدمين، وهذا الشعور يغير علاقة الإنسان بالله ويجعلها علاقة اتصال وقرابة، قائمة على الاجلال والحمد والمحبة يقول ((لنتوكل على الله، ونحن واصلون في رحلة الحياة إلى مقرنا بأمان، ولنتعلم ما اراد الله، وان لا نريد ما لا يريد، ولنكن حامدين ولفضله شاكرين)) [٤٨].

٣. مرقس أوريليوس:

يقول ان الفحص اليومي للضمير مران خلقي أوصى به "سنيكا" فعلى المرء كل مساء قبل النوم مساءلة نفسه، أي داء شفيت اليوم، أي رذيلة قأومت، بم انا اليوم افضل مني بالامس، وهذه هي تمارين التأمل الداخلي التي كان يوجهها (مرقس أويليوس) إلى ذاته، حتى يدفع عن نفسه ثبوط الهمة ووهن العزيمة.

ويقول، اذا شئت ان تجد مكاناً منيعاً فأطلبه في نفسك التي بين جنبيك فليس في العالم موضع اهداء ولا ابعد عن السآمة مما يجد المرء حين يخلو إلى نفسه، ويقول أيضاً ((لتعلم ان نفسك منبع الخيرات جميعاً، هي منبع لا ينضب على شرط ان تزيده كل يوم تعميقاً))[٤٩].

ويدعو إلى طيبة القلب واستقامة الضمير حيث يقول ((لتبق بسيطاً طيباً نقي السريرة جاداً، عدواً للزهو والجاه، صديقاً للعدل والحكمة، متديناً رفيقاً انسانياً، مستمسكاً بأداء الواجب، ولتجاهد نفسك لكي تبقى كما ارادتك الفلسفة ان تكون ولتسبح لله، ولتكون دائماً في عون الناس، فالحياة قصيرة، وثمرة وجودك على الارض ان تصون نفسك مطهرة وان تفعل مايعود بالخير على الجماعة))[٥٠].

اما نظرته إلى الموت ليس كون الموت مما لا يؤبه به، بل كان يعتقد ان الكون يسترجع الفرد عن طريق الموت فينتشر هذا الفرد في الكل، وبذلك يكون الموت انعتاقاً وضماناً لنا من خطر خرف العقل[٥١].

ويرى (مرقس أوريليوس) ارتباط الفرد بالكون، فهذا الارتباط هو الشيء الوحيد الذي يعطي الحياة معنى، وهذا التوكيد على الطيبة الجوهرية للعالم هو شيء اكثر واعمق من مجرد الايمان الاعتيادي بالعناية الالهية ويقول ((حتى لو كانت الالهة لا تبالي بي ولا تحفل بي، فانا اعلم انني كائن عاقل وان لي وطنين، روما مادمت انا (مرقس أوريليوس) والعالم بأسره ما دمت إنساناً وان الخير الأوحد هو ما كان فيه نفع لهذين الوطنين)).

وهكذا يأخذ (مرقس أويليوس) بما ذهبت اليه الرواقية القديمة بان الناس على اختلاف الوانهم وشعوبهم تجمعهم وحدة العقل والجوهر، ولا ينسى (مرقس أويليوس) ان يلفت النظر إلى رابطة القربى التي تصل كل فرد من افراد الناس وبين الجنس البشري عامة وليس يعدل هذه القرابة في نظره قرابة الدم ولا قرابة المولد، لانها قرابة قائمة على شرف الإنتساب إلى عقل واحد)).

الخاتمة :

وجدنا من خلال البحث ان مراتب المعرفة عند اهل الرواق، هي مرتبة التصور، فوقها مرتبة التصديق، فوقها مرتبة التصور المحيط، وفوق هذه المراتب كلها مرتبة العلم، فالعلم اذن هو ما يستطيع ان يسمح للإنسان بالانضمام إلى بنية العالم وبفعل هذا الانضمام يتحرك الإنسان إلى حد ما ليكون متوافقاً مع العقل ومن ثَمَّ مع الله ذاته.

وان المنطق الرواقي هو منطق استقرائي يقوم على ان العالم مؤلف من ظواهر مرتبطة بعضها ببعض، لا كالمنطق الارسطي القائم على ارتباط التصورات والماهيات وهو لا يمثل بنظرهم مجرد آله، وانما هو جزء من الفلسفة أو نوع من

انواعها، والمنطق عندهم نوع من الجدل، وأول منابع اليقين وأول معيار من معايير الحق، وانه لا يمكن الاستغناء عنه، وهو في ذاته فضيلة عامة تنطوي على فضائل اخرى خاصة.

اما بالنسبة للطبيعيات عندهم، فهم يؤكدون ان الشيء لا يكون حقيقياً مالم يكن جسمانياً، أي ان كل فعل يستلزم شيئاً مادياً جسمانياً محسوساً لكي يتم فلابد من ارجاع كل شيء وكل موجود حقيقي إلى ماهو مادي، بل لقد ذهب بعضهم في تلك النظرية المادية إلى ابعد من هذا، فصرحوا بان النفس الإنسانية جسم، وان الله هو أيضاً جسم وإلاّ فكيف يؤثر في جميع الاجسام، التي يتألف منها العالم، وهكذا امضى اصحاب الرواق في تلك النظرية المادية إلى ابعد حدود منطقهم، فرأوا ان خواص الاجسام وصفاتها (كاللون والرائحة والطعم والشكل والصوت) والصفات الاخلاقية نفسها (كالخيرات والفضائل والحكمة) والانفعالات (كالغضب والحزن والحب) كلها اشياء جسمانية.

والكون الرواقي معلول لعلة فاعلة بموجب قانون حتمي، فكل مافي الوجود ومنه الإنسان يسير وفق قانون ثابت وغاية لا تتغير، فليس هناك أي امكان في العالم الرواقي للعفوية أو الصدفة، وما الله والعقل والضرورة والناموسي الالهي والقدر عند (زينون) الا شيء واحد وما نظرية القدر إلاّ تعبير واضح عن هذه العقلانية المتكاملة التي نجدها عند الرواقيين، لذا يتوقف القدر عن ان يكون كما كان في الفكر الاغريقي تعبيراً مأسأوياً، أو قوة لا عقلانية خارجة بشكل اساسي عن العالم، ليصبح واقعاً طبيعياً اخلاقياً ولاهوتياً يدخل في بنية العالم وفي الحياة التي تحرك الكون والموجودات.

اما بخصوص الاخلاق، يرى الرواقيون ان على الإنسان ان يبحث في نفسه عن العقل اكمل الطرق لتحقيق اسمى الغايات وان يترجم عنه بأفعاله، أي ان يحيى على وفق الطبيعة والعقل، وقد وهبتنا الطبيعة النزوع الذي يهدينا إلى التمييز بين ما هو موافق لها وما هو مضاد فنطلب ما ينفعنا ونتجنب ما يضرنا وخلافاً للابيقورية

الذين اكدوا ان النزوع الأول منصرف إلى اللذة فما اللذة عند الرواقيين إلاّ عرض ينشأ حين ما يحصل الكائن على ما يوافق طبيعته. وان عدم فهم الطبيعة وعدم ادراك قوانينها يؤديان في اضطراب الإنسان بحيث يجد نفسه مسبراً بشكل متناقض لارادته الشخصية وبعيداً عن تحقيق ارادته وخيره ويغدو من ثم خاضعاً لنزواته المتعارضة مع الطبيعة، فحكم العقل عند الإنسان وسيطرته على شهواته كل ذلك يمثل قمة توافق الإنسان مع الطبيعة.

وان خيرية الإنسان انما هو في الفضيلة وفي حرية العقل لا في اتباع اللذات والشهوات، والفضيلة ليس لها موضوع خارجي تتوجه اليه ولكنها تنتهي عند نفسها وتقوم في ارادة المطابقة مع الطبيعة، ولا تقاس قيمتها بغاية تحققها لكنها هي الغاية في ذاتها.

اما فكرة العالمية عندهم ومؤداها ان يعتبر الإنسان الكره الارضية كلها وطناً له، فقد اشتقوا هذه الفكرة من اصلين من اصول مذهبهم أولهما يقول ان الكون واحد نشأ عن اله واحد وينظمه قانون واحد ويكون نظاماً واحداً، وثانيهما يقول ان الناس وان خالف بعضهم بعضاً في امور غير جوهرية متفقون في طبيعة اساسية واحدة هي العقل الذي يشارك فيه الناس جميعاً ولهذا ارتدوا من حيث هم كائنات ناطقة إلى ماهية واحدة ومن ثم وجب ان يؤلفوا وطناً واحداً، واضحى تقسيم العالم إلى دول متحاربة متنابذة تناقضاً لا يساير طبيعتهم العاقلة، ومن هنا قالوا ان الحكيم ليس مواطناً في دولة ما بل هو مواطن عالمي، فوطن الحكيم ليس فقط البلد الذي ولد فيه وانما العالم بأسره أي المدينة الالهية التي يرفرف عليها الحق دائماً، والبشر جميعاً يمتون بصلة نسب إلى هذا الوطن الكبير مهما كان وضعهم الاجتماعي ومهما كانت قوميتهم وهذا الشعور العميق بين الناس من مسأواة واخاء وبما يساهمون به من نصيب في الخير قد شاع في الاخلاقيات الرواقية زمناً طويلاً.

Abstract

This topic Treats ethics according to the Stoics. The definition of philosophy given by the Stoics indicates that ethics occupy the first position.

For example, they said that philosophy is the practice of virtue; They also believe that a man should seek reason in himself as it is the most perfect way to achieve the highest aims; he must embodies reason by actions, i.e. to live according to nature and reason.

Nature has bestowed us the disposition which enables us to distinguish between what complies and what contrasts with it. Therefore, we seek what is useful and avoid what is harmful to us.

Non understanding nature and not realizing its laws lead to the disorder of man till he finds himself contradicting with his personal will and away from achieving his aim and consequently becomes subject to his caprices which contradict with nature.

Thus, the judgment of human reason and its control on his desires represent the climax of correspondence between man and nature.

Moreover, the goodness of man is reflected in virtue and in the freedom of mind rather than in pursuing pleasures. Virtue does not have outside relations to move towards, it ends at itself.

Virtue is corresponds with nature and its value is not measured by a goal it may accomplish but it represents the goal per se. Stoics Think that people should not divide into different peoples and tribes with various laws and maxims for each because they are all brothers.

They never include masters and slaves. They are all citizens similar in their essence. They are also in one nature which is their mother and law. Therefore, the homeland of a wise man is the whole world.

هوامش البحث

(◆١) زينون: شيخ الفلاسفة الرواقيين القدماء وُلد حوالي سنة ٣٣٦ ق.م. بمدينة كتيوم بجزيرة قبرص. انظر: عثمان أمين. الفلسفة الرواقية. القاهرة. ص٤٦-٦٦.

(◆٢) كليناتس: ولد سنة ٣٣١ق.م. في مدينة آسوس وهو أحد تلامذة زينون وقد خلَف زينون بعد وفاته في ادارة المدرسة الرواقية انظر: المصدر السابق. ص٦٦.

(◆٣) كريسبوس (٢٨١-٢٠٩)ق.م.: وهو تلميذ كليناتس وآخر ممثل للرواقية القديمة وأكبرهم انتاجاً عقلياً وقد أحيا تعاليم المدرسة الرواقية وبذلك سمّي بالمعلم الثاني للرواقية. انظر: محمد علي ابو ريان. تاريخ الفكر الفلسفي أرسطو والمدارس المتأخرة. دار الوفاء للطباعة , القاهرة، ط١. ٢٠٠٧. ص٢٢٢.

(◆٤) فنايطوس: أول ممثل للرواقية الوسطى ولد بجزيرة رودس حوال ١٩٨ ق.م. وكان صديقاً للكثير من مشاهير الرومان. انظر: عثمان أمين. الفلسفة الرواقية ص٧٧.

(◆٥) بانتيتيوس: (١٨٠-١١٠) ق.م. وهو المؤسس الحقيقي للفترة الوسيطة من الرواقية.

(◆٦) بوزيدونيتوس: مؤرخ وفيلسوف سوري الأصل عاش من سنة ١٥٣ حتى سنة ٥١ ق.م. ويعدّ آخر ممثل للرواقية في عهدها المتوسط. انظر: محمد علي ابو ريان. تاريخ الفكر الفلسفي أرسطو والمدارس المتأخرة. ص٢٢٣.

(◆٧) سنيكا: ولد بقرطبة السنة الرابعة ق. م. وهو مؤسس الرواقية الحديثة وابن الخطيب الروماني المشهور موزونيوس. انظر: المصدر السابق. ص٢٢٤.

(◆٨) ابكتاتوس (٥٠-١٣٨)م وهو أحد فلاسفة الرواقية الحديثة ومن تلامذة سنيكا وأُرسل إلى روما وأصبح عبداً لرجل اسمه أبافروديت ومن هذا أشتق اسم اكتاتوس ومعناه العبد. انظر: المصدر السابق. ص٢٢٤.

(◆٩) مرقص أوريليوس (١٢١-١٨٠)م آخر مؤسسي الرواقية الحديثة وهو أحد أمراء الرومان. انظر: المصدر السابق. ص٢٢٤.

(١) بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية ط٤ ١٩٧٠ ص١١.

(٢) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ٢٠٠٦ ص٢٨٨.

(٣) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت ط١ ١٩٧٧ ص٢٢٤.

(٤) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة، ص٢٨٩.

(٥) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مطبعة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧١ ص٩١-٩٩.

(٦) برهيية، اميل ، تاريخ الفلسفة ج٢، ترجمة جورج طرابيش، دار الطليعة ، بيروت ط٢ ١٩٨٨ ص٥٦-٥٧ كذا ينظر: عثمان امين، الفلسفة الرواقية ص١٠٩.

(٧) امين ومحمود، احمد وزكي نجيب، قصة الفلسفة اليونانية القاهرة ط٧ ١٩٣٥ ص٢٠٥.
(٨) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص١١٧.
(٩) المصدر نفسه ص١٢٠.
(١٠) برهيية، اميل، تاريخ الفلسفة، ص٥٨.
(١١) بدوي ، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، ص٢٦.
(١٢) امين، عثمان ، الفلسفة الرواقية، ص١٧٦.
(١٣) امين ومحمود، احمد وزكي نجيب، قصة الفلسفة اليونانية ص٢٠٦ كذا ينظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٢٦.
(١٤) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٢٧.
(١٥) امين، عثمان ، الفلسفة الرواقية ص١٦٩ يقارن ذلك مع ما قالته الاشاعرة حول نظرية الكسب ينظر في ذلك احمد محمود صبحي في علم الكلام، ج٢، ص٧٨-٧٩.
(١٦) الطويل، توفيق ، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، القاهرة، ١٩٦٠ ص٧٤.
(١٧) بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، ص٤٠ كذا ينظر، جلال الدين سعيد، فلسفة الرواق مركز النشر الجامعي ١٩٩٩ ص٣٠.
(١٨) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢٩٤-٢٩٥.
(١٩) ابراهيم، زكريا، المشكلة الخلقية ، مكتبة مصر، ١٩٦٦ ص١٣٥-١٣٦.
(٢٠) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢٩٥.
(٢١) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٩٠.
(٢٢) ونرى تأثير الرواقية في العالم الاسلامي فتأثر بها اخوان الصفا من ناحية وصوفية الاسلام من ناحية اخرى، وان الاخلاق الرواقية قد ساهمت بنصيب ملحوظ في تشكيل سلوك الصوفي المسلم، فإذا كان الاسلام قد اباح للمؤمنين في حياتهم الدنيا طيبات الرزق ومتع الحياة البريئة فان جمهرة الصوفية قد غلوا في العزوف عن متاع الدنيا، وافرطوا في مجاهدة شهواتهم افراطاً يتطلب تفسيره الرجوع إلى العوامل الدخيلة إلى الاسلام وفي مقدمتها الاخلاق الرواقية، ينظر : توفيق الطويل ، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، ص٨٤.
(٢٣) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢٩٥.
(٢٤) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٠٣.
(٢٥) قارن مسكوية، تهذيب الاخلاق ص١٧٥ ومابعدها.
(٢٦) الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ص٧٦.
(٢٧) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٠٠-٢٠١.
(٢٨) المصدر نفسه ص٢٠٨-٢٠٩.
(٢٩) بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني ص٤٢.

(٣٠) الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، ص٨١.
(٣١) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٣٠ كذا ينظر اميل برهيية، تاريخ الفلسفة، ج٢، ص٧٩.
(٣٢) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢٩٨-٢٩٩.
(٣٣)كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٠٨.
(٣٤) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢١٥ ويقارن ذلك مع ما قاله أرسطو في شروط تأسيس الدولة من ناحية حجم السكان وموقع الدولة، ينظر في ذلك عمر عبد الحي، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٢٤٦-٢٤٧.
(٣٥) برهيية، اميل، تاريخ الفلسفة ج٢، ص٨٧.
(٣٦) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢١٦ كذا ينظر: معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، معهد الانماء العربي ط١ ١٩٨٨.
(٣٧)عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٣٠٠.
(٣٨)امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٢٠.
(٣٩) بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني ص٤٩.
(٤٠) برهيية ، اميل، تاريخ الفلسفة ج٢، ص٢١٢.
(٤١) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة ص٣٥٦.
(٤٢) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٣٤.
(٤٣) المصدر نفسه ص٢٣٧.
(٤٤) المصدر نفسه ٢٣٨.
(٤٥) المصدر نفسه ص٢٤٦.
(٤٦) الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطوها ص٨٣.
(٤٧) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٤٨.
(٤٨) المصدر نفسه ص٢٥٢.
(٤٩) المصدر نفسه ص٢٦٣.
(٥٠) المصدر نفسه ص٢٦٤.
(٥١) برهيية، اميل، تاريخ الفلسفة ج٢ ص٢١٦.
(٥٢) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية ص٢٦٩

قائمة المصادر والمراجع

(١) ابراهيم، زكريا، المشكلة الاخلاقية، مكتبة مصر ١٩٦٦.
(٢) ابو ريان، محمد علي. تاريخ الفكر الفلسفي أرسطو والمدارس المتأخرة. دار الوفاء للطباعة , القاهرة، ط١. ٢٠٠٧.
(٣) امين، عثمان، الفلسفة الرواقية، مطبعة الانجلو مصرية، القاهرة ١٩٧١.
(٤) امين ومحمود، احمد وزكي نجيب، قصة الفلسفة اليونانية، القاهرة ١٩٣٥.
(٥) بدوي، عبد الرحمن، الاخلاق النظرية.
(٦) بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية ط٤ ١٩٧٠.
(٧) برهيية، اميل، تاريخ الفلسفة ج٢، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت ط٢ ١٩٨٨.
(٨) زيادة، معن ، الموسوعة العربية، المجلد الثاني، معهد الانماء العربي ط١ ١٩٨٨.
(٩) سعيد، جلال الدين، فلسفة الرواق، مركز النشر الجامعي ١٩٩٩.
(١٠) صبحي، احمد محمود، في علم الكلام ج٢، بيروت ط٥ ١٩٨٥.
(١١) الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، القاهرة، ١٩٦٠.
(١٢) عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة، بيروت ط٢ ٢٠٠٦
(١٣) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم - بيروت ط٢ ٢٠٠٦.
(١٤) مسكويه، تهذيب الاخلاق.